مقياس: فلسفة النقد

السنة الثانية ليسانس (دراسات نقدية)

المحاضرة السادسة: الواقعية

تمهيد:

ترتبط نشأة المذهب الواقعي في الأدب والنقد بانتشار الفلسفات: الوضعية والتجريبية، والمادية الجدلية في أوروبا.

وقد امتد تأثير هذه الفلسفات إلى الفنون والآداب، وظهرت دعوات إلى الاستفادة من معطيات العلم الحديث فيهما، والاهتمام بالواقع وتطويره، وتطبيق النظريات العلمية في إصلاحه، وفي فهم الإنسان وطبائعه، وتوجيه الفن والأدب إلى خدمة المجتمع.

ونتيجة لذلك اهتم عدد من الأدباء بتصوير الحياة الاجتماعية، فتكون من أعمالهم الأدبية والدراسات النقدية التي نشأت حولها ما سمي بالمذهب الواقعي الأدبي.

1- تعريف الواقعية:

الواقعية (Réalisme) هي المذهب الذي يقرر للواقع الخارج عن التعقل وجودا مستقلا، ويقيس صدق الكلام بمطابقته للواقع، وهي بهذا المعنى تعارض المثالية (Idéalisme)، فترفض أن تربط وجود الأشياء والطبيعة بالوجود الإنساني وترى أن للعالم وجودا عينيا مستقلا عن الذات العارفة وأحوالها؛ فالواقعية من الواقع (Réel)، وهو الموجود حقيقة في الطبيعة والإنسان

نشأت الواقعية الغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر متأثرة بالنهضة العلمية والفلسفة العقلانية ونتيجة للمبالغات الخيالية والعاطفية التي انغمست فيها الرومانسية.

كما جاءت نتيجة للتقدم العلمي والكشوفات الهائلة في مجالات العلوم والدراسات التجريبية والمنحى الوضعي في الفلسفة.

تدعو الواقعية إلى الإبداع الأدبي بتصوير الأشياء الخارجة عن نطاق الذات، والثورة على شرور الحياة والكاتب الواقعي يأخذ مادة تجاربه من مشكلات العصر الاجتماعية وشخصياته من الطبقة الوسطى أو طبقة العمال، وغاية الواقعين أن يصبح الإنسان سيد الطبيعة في مجتمع عادل ومن ثم كان الأديب الواقعي أكثر أمانة في تصوير بيئته.

وتنقسم الواقعية إلى ثلاث واقعيات هي: الواقعية الانتقادية، والواقعية الطبيعية، والواقعية الاشتراكية.

2- الواقعية الانتقادية:

وتسمى الواقعية الأم أو الواقعية المتشائمة؛ تهتم هذه الواقعية بقضايا المجتمع ومشكلاته، وتركز اهتمامها بشكل خاص على جوانب الفساد والشر والجريمة، فهي تنتقد المجتمع بإظهار تناقضاته وعيوبه وعرضها على الناس.

وتميل هذه الواقعية إلى التشاؤم، وتعد الشر عنصرا أصيلا في الحياة؛ لذلك تبحث عنه وتجعله محور العمل الأدبي، وتتخذ مادتها من واقع الحياة الاجتماعية.

وتعد القصة والرواية مجال الواقعية الانتقادية الأكبر وتليها المسرحية، فمعظم إنتاج الواقعيين الانتقاديين قصص وروايات ومسرحيات، ومن أشهر روادها الأديب الفرنسي 'بلزاك' الذي كتب روايته الشهيرة (الملهاة البشرية) في أربع وتسعين جزءا، وصور فيها حياة المجتمع الفرنسي ما بين عامي 1829- 1848م تصويرا دقيقا، ومنهم أيضا: شارلز ديكنز، وتولستوي، ودوستويوفسكي، وإرنست هيمنغواي، وغيرهم.

3- الواقعية الطبيعية:

وهي فرع للواقعية الأم، وهي تتفق مع الواقعية الانتقادية في مبادئها، وتزيد عليها في تأثرها الشديد بالنظريات العلمية، ودعوتها إلى تطبيقها في المجالات الإنسانية، وإظهارها في العمل الأدبي، وكان ذلك نتيجة لتأثير الفلسفة الوضعية والتجريبية.

والإنسان في تصور هذه الواقعية حيوان تسيره غرائزه وحاجاته العضوية، لذلك فإن سلوكه وفكره ومشاعره هي نتائج حتمية لبنيته العضوية ولقوانين الوراثة، وأما حياته الشعورية والعقلية فظاهرة طفيلية تتسلق على حقيقته العضوية، وكل شيء في الإنسان يمكن تحليله ورده إلى حالته العضوية، وبهذا التصور تفهم الواقعية الطبيعية الإنسان وتعرض ذلك في الأدب.

وأهم خصائص أدبها:

- المبالغة في التزام الواقع الطبيعي، إلى درجة الاهتمام بالأمور القبيحة، واستخدام الألفاظ البذيئة، بدعوى أن ذلك جزء من تصوير الواقع الحقيقي تصويرا علميا دقيقا.
- الإخلاص للعلم الطبيعي والفلسفة المادية والوضعية، والابتعاد التام عن الغيبية والمثالية.

وقد ظهر في هذا الاتجاه اللامبالي الكوميديا الطبيعية وما سمي بالمسرح الحر، الذي كان لا يعبأ بأي نقد أو رقابة.

ويعد الأديب 'إيميل زولا' رائد هذه الواقعية؛ بدعوته في مذهبه الطبيعي إلى التجربة الأدبية في القصة والمسرح، وأن الكاتب يجب أن يسلك في دراسته الفنية للمجتمع مسلك العالم في معمله، والطبيب في تجاربه؛ على أن تتفق تجاربه – في قصته ومسرحيته – مع النتائج والنظريات التي انتهى إليها العلماء، وقد شرح مذهبه الطبيعي في الأدب في كتابه (القصة التجريبية)؛ ويقصد في مذهبه إلى تطبيق النظريات العلمية على الحقائق الاجتماعية والإنسانية.

وقد كتب زولا قصته الشهيرة (الحيوان البشري) تجسيدا لمذهبه الطبيعي؛ بتطبيق نظريات 'دارون' في التطور، و'مندل' في الوراثة، و'كلود برنارد' في الطب على أبطال قصته؛ ليثبت أن سلوك الإنسان وفكره ومشاعره نتائج طبيعية لما تقوله هذه النظريات.

ومن كتاب هذا المذهب 'فلوبير' صاحب القصة المشهورة (مدلم بوفاري).

– وقد تأثر النقد الأدبي كذلك بالاتجاه الفلسفي الوضعي والتجريبي في فلسفة 'تين'؛ الذي شرح في قانونه المعروف أسباب الاختلاف في النتاج الفني للأجناس البشرية المختلفة، فأرجعها إلى ثلاثة أسباب: الجنس والبيئة والعصر، وكان لهذا القانون أثر مهم في النقد الأدبي في أوروبا آنذاك.